الرسول هو المثل الأعلى للحياة المتوازنة المتكاملة

- نعمة خلود القرآن .
- نعمة السيرة النبوية .
- المثل الأعلى للحياة المتوازنة المتكاملة .
- كلمة بليغة لابن القيم .

الرسول هو المثل الأعلى للحياة المتوازنة المتكاملة

● نعمتان عُظميان :

من فضل الله على المسلمين ، وتمام نعمته عليهم : نعمتان عظيمتان ، تميزت بهما هذه الأمة الخاتمة : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) .

❊ نعمة خلود القرآن :

النعمة الأولى : هى خلود مصادر هذا الدين ، وبقاؤها محفوظة بحفظ الله لها ، فإن هذه الأمة هى الأمة الأخيرة ، التى حمَّلها الله آخر الرسالات ، فليس بعد نبيها نبى ، ولا بعد قرآنها كتاب ، ولا بعد دينها شريعة . ولهذا لم يكل حفظ كتابها إلى أهلها كالكتب السابقة ، بل تكفل بحفظه بنفسه ، وقال فى ذلك : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٢) ، والقرآن هو المصدر الأول لهذه الملَّة ، والمنبع الأول للعقيدة والشريعة والسلوك .

ولقد صدَّق الواقع التاريخى هذا الوعد الإلهى أعظم تصديق ، فقد مضت أربعة عشر قرناً أو تزيد على نزول هذا القرآن ، وهو هو ، كما أنزله الله ، وكما تلاه رسوله على أصحابه ، وكما كُتب فى عهد عثمان رضى الله عنه . تتناقله الأجيال ، محفوظاً فى الصدور ، متلو بالألسنة ، مكتوباً فى المصاحف .

ولا يوجد كتاب يحفظه - عن ظهر قلب - عشرات الألوف ، ومئات الألوف من أبنائه ، إلا القرآن العظيم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وحفظ القرآن - كما نبَّه الإمام الشاطبى رحمه الله - يتضمن حفظ السُّنَّة

---

(١) البقرة : ١٠٥ (٢) الحجر : ٩

كذلك ، لأن السُّنَّة هى البيان النظرى والعملى للقرآن ، لأن حفظ المبيَّن يتضمن حفظ البيان معه .

*

* نعمة السيرة النبوية :

والنعمة الثانية : هى السيرة النبوية العاطرة ، وهى سيرة متميزة لها خصائصها التى بيَّنها المحققون من العلماء [1] ، فهى سيرة علمية مدونة ، وسيرة تاريخية ثابتة ، وسيرة مكتملة الحلقات ، من الولادة إلى الوفاة ، وهى سيرة شاملة جامعة ، تُجسِّد حياة النبى ﷺ فى وقائع وأحداث ، ناطقة معبرة ، هذه الحياة المتكاملة المتوازنة ، التى نجد فيها الإسلام حياً ، والقرآن مفسَّراً ، والقيم الإسلامية تسعى بين الناس على قدمين ، هذه الحياة هى التطبيق العملى للقرآن الكريم ، كما قالت عائشة وقد سُئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ ، فقالت : « خُلُقه كان القرآن » .

هذه الحياة هى التى يجد كل مسلم فيها أُسوته المثلى ، ومثله الأعلى ، فقد أدَّبه ربه فأحسن تأديبه ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة ، وعلَّمه ما لم يكن يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيماً ، وامتنَّ به على المؤمنين ، إذ بعثه رسولاً منهم ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] .

يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾ [3] .

---

(١) من أبرز ذلك : محاضرات العلامة سليمان الندوى ، التى ترجمها من الأوردية إلى العربية العلامة محب الدين الخطيب ، ونشرتها « المكتبة السَّلَفية » تحت عنوان « الرسالة المحمدية » ، وهو كتاب ينبغى أن يُقرأ .

(٢) آل عمران : ١٦٤ (٣) الأحزاب : ٢١

ولا يوجد عند اليهود ولا النصارى - ولا عند غيرهم من أصحاب الأديان الأخرى - مثل هذه السيرة الحية النابضة ، الشاملة لكل مراحل الحياة ، وكل جوانب الحياة ، كما تُصوِّر ذلك كتب الشمائل النبوية ، وكتب « الهَدْى النبوى » : فى المأكل والمشرب ، فى الملبس والزينة ، فى النوم واليقظة ، فى الحضَر والسَفَر ، فى الضحك والبكاء ، فى الجد واللَّهو ، فى العبادة والمعاملة ، فى الدين والدنيا ، فى السلم والحرب ، فى التعامل مع الأقارب والأباعد ، مع الأنصار والخصوم ، حتى النواحى التى يسميها الناس « خاصة » فى معاشرة الزوجات ، كلها مروية محفوظة فى هذه السيرة الكاملة .

* *

● المثل الأعلى للحياة المتوازنة :

والحق أن المثل التطبيقى الأعلى للتكامل وللتوازن بين المثال والواقع ، بين القلب والعقل ، بين الإيمان والعلم ، بين الروح والمادة ، بين الفردية والجماعية ، بين حق الرب وحظ النفس . وإعطاء كل منها حقه بلا طغيان ولا إخسار - هو رسول الله ﷺ ، الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وأنزل عليه القرآن هدى للناس وبيِّنات من الهدى والفرقان .

❊ الرسول العابد الزاهد :

فنراه فى مجال العبادة لربه ، العابد الأول ، الذى كانت قُرَّة عينه فى الصلاة ، وكان يقوم اللَّيل حتى تتفطّر قدماه ، ويبكى حتى تبلل دموعه لحيته ، وتعجب زوجه عائشة من شدة تعبده وبكائه ، وقد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر ، فيقول لها : « أفلا أكون عبداً شكوراً » (١) .

وكان يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع غالباً ، وأحياناً يديم الصيام حتى يظن مَن حوله أنه سيصوم الدهر كله ، وأحياناً يواصل اللَّيل بالنهار فى الصيام ، فيمضى يومين أو أكثر لا يتناول طعاماً ، بعد الغروب ، وهو ما نهى عنه أصحابه ولهذا قالوا له : أنتهانا عن الوصال وتواصل ؟ فقال : « وأيكم

---

(١) متفق عليه .

مثلى ؟ إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى » [1] ، فكانت من خصوصياته صلى الله عليه وسلم .

وكان دائم الذكر لله تعالى فى كل أحواله : وعلى كل أحيانه ، بقلبه ولسانه . وأذكاره وأدعيته ومناجاته لربه ، يتجلى فيها أغنى قيم الصدق والإخلاص لله تعالى ، والعبودية المتجردة لربها ، كما أنها تمثل أروع المعانى ، وأوضح الطموحات التى ينبغى أن ينشدها الإنسان الربَّانى لنفسه ، ولمن يحب . . مصوغة فى أحلى القوالب البلاغية ، وأعذب الأساليب البيانية ، التى تهز الكينونة البَشرية من أعماقها . . وهى وحدها مدرسة روحية فذَّة .

وقد حفلت بها كتب الحديث والسيرة ، وأُلِّفت فيها كتب خاصة ، قديماً [2] وحديثاً ، لعل أحدثها كتاب شيخنا الشيخ محمد الغزالى « فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء » .

وكان صلى الله عليه وسلم ، برغم تعبده لربه ، واشتغاله بذكره ، وقيامه الدائم بالدعوة إلى دينه ، والجهاد فى سبيله ، دائم الخشية له سبحانه ، كثير الاستغفار ، كثير التوبة ، وهذا من كمال عبوديته ، وعظم مقام الألوهية عنده ، وفى هذا كان يقول : « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » [3] ، « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإنى أتوب إلى الله عَزَّ وجَلَّ فى اليوم مائة مرة » [4] .

وكان صلى الله عليه وسلم أزهد الناس فى الدنيا ، وأرضاهم باليسير منها ،

---

(١) متفق عليه .

(٢) مثل « عمل اليوم والليلة » للنسائى ولابن السنى ، و« الأذكار » للنووى ، وشرحه لابن علان ، و« الكلم الطيب » لابن تيمية ، و« الحصن الحصين » لابن الجزرى ، وشرحه « تحفة الذاكرين » للشوكانى .

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن الأغر المزنى « صحيح الجامع الصغير » (٢٤١٥) .

(٤) رواه أحمد ومسلم عن الأغر أيضاً . المرجع نفسه (٧٨٨١) .

مع ما فتح الله له من الفتوح ، وأفاء عليه من الغنائم ، وبعد أن أصبح سيد الجزيرة . . . ولكنه لقى ربه ولم يشبع من خبز الشعير ثلاثة أيام متوالية ، وكان الشهر يمر تلو الشهر ولا يوقد فى بيته نار ، إنما عيشه على الأسودين : التمر والماء . . . وكان ينام على الحصير حتى يؤثر فى جنبيه . . . ورآه عمر ابن الخطاب يوماً كذلك ، فبكى توجعاً له وإشفاقاً عليه ، واقترح عليه بعضهم أن يهيئوا له فراشاً ألين من هذا ، فقال لهم : « ما لى وللدنيا ؟ ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها » ! (١) .

*

* الرسول الإنسان :

ولكنه صلى الله عليه وسلم مع هذه الروحانية العالية ، فى ذكره وشكره وحُسْن عبادته لربه ، وفى زهادته فى دنيا الناس ، وعيشه فيها بشعور الغريب ، وعابر السبيل ! . . لم يغفل الجوانب الأخرى من الحياة بما تفرضه من أعباء ، وما تمثله من مطالب ، لم ينس أنه إنسان وزوج وأب وجد ، وقريب ، وجار ، وصديق ، ورئيس ، وقائد . . . وأن كل علاقة من هذه لها حقوقها .

ولهذا رأيناه إنساناً يرضى كما يرضى البَشَر ، ويغضب كما يغضب البَشَر ، ويفرح كما يفرحون ، ويحزن كما يحزنون .

ولكنه إذا رضى لم يُدخله رضاه فى باطل ، وإذا غضب لم يُخرجه غضبه عن الحق ، وإذا فرح لم يفرح بغير الحق ، وإذا حزن لم يُخرجه حزنه عن الصبر والرضا ، ويشارك أصحابه فى مسرَّاتهم ، ولا يخرجه ذلك عن الوقار .

ويضحكه بعض أصحابه فيضحك ، ويمزح أحياناً ، ولكن لا يقول إلا حقاً ، ويأذن للحبشة أن يرقصوا بحرابهم فى مسجده ، ويعرف طبيعة الأنصار ،

---

(١) رواه أحمد والحاكم عن ابن عباس ، ورواه بنحوه أحمد والترمزى وابن ماجه والحاكم والضياء عن ابن مسعود - صحيح الجامع الصغير (٥٦٦٩) ، (٥٦٦٨) .

فيقول فى عرس لأحدهم : « أما كان معهم لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللَّهو » [١] ، ويسمح لجاريتين أن تغنيا فى بيته فى يوم عيد « حتى يعلم اليهود أن فى ديننا فسحة ، وأنى بُعِثتُ بحنيفية سمحة » [٢] .

*

* الزوج المثالى :

رأيناه زوجاً يحسن عشرة أزواجه ، ويعدل بينهن فيما يقدر عليه ، ويطيب أنفسهن ، ويصالح بينهن ، ويُقدِّر الظروف الخاصة لكل منهن ، ويستمع أحياناً إلى قصصهن وإن طالت ، كما فى حديث أم زرع المشهور ، وبرغم همومه ومشاغله التى تنوء بها الجبال ، يداعب ويمازح ، كما رأيناه يسابق عائشة ، فتسبقه مرة ، ويسبقها أخرى ، فيقول لها : « هذه بتلك » [٣] .

*

* الأب والجد :

رأيناه أباً يحب أبناءه وبناته ، ويحرص على كل خير لهم فى الدنيا والآخرة ، مات ابنه إبراهيم ، فحزن عليه ، ودمعت عيناه ، ولم يجد فى ذلك ما ينافى الصبر والرضا ، بل قال : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، واللهِ إنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » [٤] .

وحين أراد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن يتزوج على فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، ابنة أبى جهل لعنه الله ، غضب ، وقال : « إن فاطمة بضعة منى ، وأنا أتخوف أن تُفتن فى دينها ، وإنى لست أُحرِّم حلالاً ، ولا أحل حراماً ، ولكن واللهِ لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد أبداً » [٥] .

---

(١) رواه البخارى عن عائشة . المصدر السابق (٧٩١٨) .

(٢) رواه أحمد عن عائشة (٦/ ١٨٦ ، ١٨٧) .

(٣) رواه أحمد وأبو داود عن عائشة - صحيح الجامع الصغير (٧٠٠٧) .

(٤) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود عن أنس - المرجع نفسه (٢٩٣١) .

(٥) رواه أحمد والشيخان وأبو داود وابن ماجه - المرجع نفسه (٢١١٥) .

رأيناه جداً يلاعب سبطيه : الحسن والحسين ، ويوطىء لهما ظهره ليركباه ، بأبى هو وأمى ، ويركب أحدهما على ظهره الشريف مرة وهو يصلى فيطيل الصلاة ، حتى ظن الصحابة الظنون ، فلما فرغ وسلَّم ، سألوه عن سر إطالة سجوده ، فقال : « إن ابنى ارتحلنى (أى اتخذنى راحلة وركوبة !) ، فكرهت أن أعجله » (١) . أى أنه لم يشأ أن يقطع على الصبى لذته فى امتطاء ظهر جده .

ويقول عن الحسن والحسين : « إن ابنى هذين ريحانتاى من الدنيا » (٢) .

*

* راعى حقوق الرحم والجوار والصداقة :

رأيناه يرعى حق الرحم والقرابة ، ولو كان أهلها مشركين ، ويقول لقريش : « إن لكم رحماً أبلها ببلالها » (٣) ، وحين تمكن منهم يوم الفتح بعد طول ما جرعوه الصاب والعلقم ، قال لهم فى تسامح القوى : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » (٤) ، بل كان يكرم أقارب أبيه من بنى النجار ، وأقارب أُمه من بنى زهرة ، مثل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، الذى عُرِف بأنه خال رسول الله ﷺ ، ولم يكن أخاً لأُمه ، ولكن من بنى عمومتها .

رأيناه يرعى حق الجار ، وإن ظلم وجار ، وإن كان يهودياً من أهل الكتاب ، ويقول فى ذلك : « ما زال جبريل يوصينى بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه » (٥) .

رأيناه صديقاً ، يرعى حقوق الصداقة والصحبة ، ولهذا غضب حين أغضب بعضهم أبا بكر ، فقال : « اتركوا لى صاحبى . . . » ، وقال :

---

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء : رواه النسائى من رواية عبد الله بن شداد عن أبيه ، والحاكم وصححه على شرط الشيخين .

(٢) رواه أحمد والبخارى والترمذى عن ابن عمر - صحيح الجامع الصغير (١٥٢٩) .

(٣) رواه البخارى فى كتاب « الأدب » ، ومسلم فى كتاب « الإيمان » عن عمرو بن العاص .

(٤) مشهور ذكره ابن هشام فى سيرته عن ابن إسحاق (٢/ ٢٧٤) ولكن إسناده معضل .

(٥) متفق عليه عن ابن عمر وعائشة - صحيح الجامع الصغير (٥٦٢٨) .

« لو كنت متخذاً من أُمتى خليلاً دون ربى ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكنه أخى وصاحبى » [١] .

وكان أوفى الناس لأصحابه ، ولكل مَن تربطه به أو بأهل بيته صلة ، حتى كان يكرم بعض العجائز ، ويبش لهن ، ويهدى إليهن ، فسُئل فى ذلك ، فقال : « إن هذه كانت صديقة خديجة ، وإن حُسْن العهد من الإيمان » ! [٢] .

*

*** رئيس الدولة :**

رأيناه رئيساً لدولة جديدة ، تحيط بها العداوات من كل جانب : وثنية ويهودية ونصرانية ، فلم يشغله هم الجهاد والإعداد لمقاومة أعدائها ، عن العناية بالشئون الداخلية لأهلها ، من بناء المسجد للصلاة ، إلى إقامة السوق للتجارة . . . ومن إقامة العلاقات السياسية بين الطوائف التى تسكن المدينة وضواحيها ، وهى دار الإسلام فى ذلك الوقت ، على أساس واضح مكتوب فى وثيقة دستورية معروفة ، إلى العناية بأمر هرَّة حبستها امرأة حتى ماتت جوعاً ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض . . . . ومن لقاء الوفود من أنحاء الجزيرة ، وإرسال الرسل إلى ملوك الأرض المعروفين ، إلى الاهتمام بأمر أَمَة تأخذ بيده ، وتمضى فى طرقات المدينة ، فلا يدع يده من يدها (توضعاً وحياءً منه) حتى تقضى حاجتها [٣] .

*

*** الرسول القائد :**

رأيناه قائداً يخطط للمعارك قبل وقوعها ، ويبعث الطلائع والعيون لاستطلاع أخبار العدو ، ويقوم بعمل أول إحصاء للقوة الضاربة عنده ، حتى يكون تخطيطه على أساس علمى مكين ، ويحث على التدريب واستمراره ، فهو دعامة القوة العسكرية : « ألا إن القوة الرمى » [٤] ، « مَن تعلَّم الرمى ثم نسيه ،

---

(١) رواه أحمد والبخارى عن ابن الزبير ، والبخارى عن ابن عباس - المرجع نفسه (٥٢٩١) .

(٢) أصل الحديث فى الصحيحين عن عائشة ، وهذا اللفظ رواه الحاكم والبيهقى ، وفى إسناده ضعف ، ذكره الحافظ فى « الفتح » (١٠/٤٣٦) .

(٣) معنى حديث رواه أحمد والبخارى عن أنس .

(٤) رواه مسلم عن عقبة بن عامر .

فليس منا » - أو : « فقد عصى » [1] . . وهو مع قوة توكله على الله تعالى - يلبس للحرب لبوسها ، حتى إنه فى إحدى المعارك ظاهر بين درعين ، ويُعلِّم أصحابه أن الحرب خدعة ، وأن للعوامل النفسية أثرها فى كسب المعارك ، فلا بد من العمل على تخذيل الأعداء ، وتفريق كلمتهم .

وهو يعتمد - بعد الله تعالى - على حُسْن التخطيط ، والتنظيم ، والإعداد ، و« التكتيك » حتى إنه ليفاجىء أعداءه بخطط لم يعهدوها ، فيربكهم ، ويعرف قدرات أصحابه ، فيضع كُلاً فى موضعه المناسب .

ولا غرو أنه القائد الذى رأينا كبار القُوَّاد - مثل أبى عبيدة وسعد وخالد وعمرو وغيرهم - تلاميذ بين يديه .

*

* العامل المتوكل :

رأيناه يراعى سُـنَّن الله ويأخذ بالأسباب ، ويعد العدة ، ويتوقى الخطر ، ويأمر بأخذ الحذر ، ويعمل بالإحصاء ، ويخطط للمستقبل ، ويرتب ويفكر قدر ما يستطيع البَشَر ، ولكنه لا يغفل أبداً عن التوكل على الله تعالى ، ولا ينسى أن الأمر كله بيده ، وخصوصاً ساعة الشدائد ، وحصار الأزمات ، فهنا تراه أقوى ما يكون ثقة بالله ، واعتصاماً به ، وفراراً إليه .

فقد رأيناه خطَّط ورتَّب ونظَّم كل ما يتعلق بهجرته إلى المدينة ، فلما وقف المشركون الذين يطاردونه على باب الغار الذى يختبئ فيه ، وقال له صاحبه ورفيقه أبو بكر مشفقاً عليه : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا » ! قال فى ثقة ويقين : « يا أبا بكر ؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ [2] ﴿ لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ [3] .

*

* القائم بعمارة الأرض المستمتع بطيباتها :

ومن ناحية أخرى نجده - صلى الله عليه وسلم - مع إقباله بكليته على الآخرة ، وإعراضه عن الدنيا وزينتها ، وتصويره الدنيا بالنسبة للآخرة ، كما

---

(١) رواه مسلم عن عقبة بن عامر أيضاً

(٢) متفق عليه عن أبى بكر .

(٣) التوبة : ٤٠

يجعل الإنسان إصبعه فى اليم : « فلينظر بماذا يرجع » ؟ [١] - لم يعش فى الدنيا عيشة الرهبان الرافضين لها ، المعادين لكل ما فيها ، بل كان يعلم أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وأن الإنسان مستخلَف فيها ، وأن له فيها مستقراً ومتاعاً إلى حين ، وأن عمارة الأرض من مقاصد التكليف ، وأن هذه العمارة - المتمثلة فى الزراعة ، والغرس ، والصناعة ، والاحتراف ، والتجارة وغيرها - تعتبر عبادة لله ، إذا صحَّت فيها النية ، وأُديت على الوجه المطلوب ، بلا خيانة ولا غش ولا إهمال ، ولهذا أبقى أصحابه - عليه الصلاة والسلام - فى حرفهم ، ولم يخرج واحداً منهم عن حرفته ، ليتفرغ للعبادة أو لغيرها ، إنما دعاهم أن يتقربوا إلي الله بإحسان أعمالهم : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء » [٢] ، « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » [٣] .

كما أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يرفض طيبات الدنيا إذا تيسرت له ، بل إذا وجدها تناولها وحمد الله تعالى . وإذا لم يجدها لم يتكلفها ، ولم يحزن على فقدها .

كان يعجبه من الطعام اللَّحم ، ويعجبه منه لحم الذراع ، ويعجبه من الشراب اللَّبن ، ويقول : « مَن سقاه الله لبناً فليقل : اللَّهُمَّ بارك لنا فيه وزدنا منه » [٤] ، وكان يُستعذَب له الماء ، ويوضع فيه بعض التمرات للتخفيف من ملوحته .

وكان يلبس من الثياب ما تيسر ، لا يلتزم زياً أو هيئة معينة ، ويختص بعض الحُلَل للجمعة وللعيدين ، وكذلك للقاء الوفود ، وكان يرجِّل شعره ، ويتطيب ، ويحب الطيب ، وينظر فى المرآة ، ويقول : « اللَّهُمَّ كما حسَّنتَ

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة . (٢) رواه مسلم عن شداد بن أوس .

(٣) رواه البيهقى فى شُعَب الإيمان عن عائشة ، وحسَّنه فى صحيح الجامع الصغير (١٨٨٠) .

(٤) رواه الترمذى فى الدعوات عن ابن عباس (٣٤٥٥) وقال : حديث حسن .

خَلقى فحسِّن خُلقى » [1] ، ويوصى أصحابه بالنظافة والتجمل ، حتى يكون أحدهم حسن المظهر ، طيب الرائحة ، ولا يحب أن يدخل عليه أحدهم ثائر الرأس كأنه شيطان ، ويقول : « مَن كان له شعر فليكرمه » [2] ، ويوصى بنظافة أشياء معينة في الجسم مثل الأسنان ، ولهذا حضَّ على السواك : « السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب » [3] ، كما أكد العناية بالجسم كله : « حق لله على كل مسلم فى كل سبعة أيام يوم يغسل فيه رأسه وجسده » [4] ، وضرب لأصحابه المثل فى ذلك كله ، وكان نِعْم الأُسوة لهم ، وعلَّمهم أن الدين لا يضيق بالتجمل ، و« إن الله جميل يحب الجمال » [5] .

رأيناه يتداوى ، ويأمر أصحابه بالتداوى ، ويُعلِّمهم أن الله لم يُنزل داءً إلا أنزل له دواء ، علمه مَن علمه ، وجهله مَن جهله ، ويصف بعض الأدوية لبعض الأمراض ، حسبما تعلَّمه من البيئة غالباً ، ولكنه بجوار هذا استخدم الأدوية الروحية من الرقَى والدعاء ، فرقى نفسه وغيره ، وعلَّمهم كيف تكون الرقية ، محذراً من الرقَى الشِرْكية .

والواقع أن سيرته صلى الله عليه وسلم - كما أشرنا إلى ذلك - سيرة جامعة شاملة ، متوازنة ، يجد فيها كل طالب أُسوة مكاناً للاتِّساء بها ، والاقتداء بهداها .

فالفقير يجد فيها مجالاً للاقتداء ، والاهتداء ، يوم كان عليه السلام يشد

---

(١) رواه أحمد عن ابن مسعود - صحيح الجامع الصغير (١٣٠٧) .

(٢) رواه أبو داود عن أبى هريرة - صحيح الجامع الصغير (٦٤٩٣) .

(٣) رواه أحمد عن أبى بكر وعائشة ، والنسائى وابن حبان والحاكم والبيهقى عن عائشة ، والبيهقى عن أبى أُمامة ، والطبرانى فى « الأوسط » عن ابن عباس - المرجع نفسه (٣٦٩٥) .

(٤) متفق عليه عن أبى هريرة - المرجع نفسه (٣١٥٤) .

(٥) رواه مسلم عن ابن مسعود .

الحجر على بطنه من الجوع . . . والغنى يجد فيها قدوته يوم وسع الله عليه ، ووضع بين يديه الأموال ، منها ما هو للدولة ، وما هو خاص له .

والحاكم والمحكوم ، والمحارب والمسالم ، والعزب والمتزوج ، وذو الزوجة الواحدة ، وذو الزوجات المتعددات ، والأب والجد ، والشاب والشيخ ، والسليم والسقيم ، والمقيم والمسافر ، والمعافى والمبتلى . . . وغير هؤلاء وهؤلاء . . . كلهم يجدون فى حياته الخصبة ، وفى سيرته الحافلة ، وفى سُنَّته الهادية ، متسعاً لهم ، ليقتدوا منها ، ويهتدوا بنورها . . فى حالات الرخاء واليُسر ، وفى حالات الشدة والعُسر ، فى حالات الانتصار ، وفى حال الانكسار .

وعيب كثير من الفِرَق والطوائف من أهل الكلام والتصوف والفقه : أنهم يأخذون بجانب من سيرته أو سُنَّته صلى الله عليه وسلم ، ويغفلون جوانب أخرى ، أو يضخمون ناحية على حساب نواح أخرى ، ولو تأملوا وأنصفوا ، وجمعوا الأمور بعضها إلى بعض ، لوجدوا فى هَدْيه عليه الصلاة والسلام الشمول والتوازن ، والاعتدال والتكامل ، الذى يسع كثيراً مما يُظن أنه متعارض ، وما هو بمتعارض ، وإنما أراد الله لرسوله أن يكون الأسوة العليا فى كل أمر من الأُمور .

* *

• كلمة بليغة لابن القيم :

ويسرنى أن أسجل هنا ما ذكره الإمام ابن القيم فى كتابه « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » حول هذا المعنى الكبير ، فأفاض فيه على طريقته ، وضرب الأمثلة ، وذكر الأدلة ، وأشبع القول بمناسبة احتجاج طائفة بسيرته وسُنَّته عليه الصلاة والسلام على فضل الفقير الصابر ، واحتجاج معارضيهم بهما أيضاً على فضل الغنى الشاكر .

يقول ابن القيم :

« وما ينبغى أن يُعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحلَّ الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى أعلاها ، وخصَّه بذروه سنامها ، فإذا احتجَّت بحاله فرقة من فرق الأُمة التى تعرف تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها ، أمكن للفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضاً .

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف ، احتج به العلماء على مثل ما احتج به أولئك .

وإذا احتج به الزُهَّاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم ، احتج به الداخلون فى الدنيا والولاية ، وسياسية الرعية ، لإقامة دين الله ، وتنفيذ أمره .

وإذا احتج به الفقير الصابر ، احتج به الغنى الشاكر .

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها ، احتج به العارفون على فضل المعرفة .

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم ، احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين والغلظة عليهم والبطش بهم .

وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة ، احتج به أرباب الخُلُق الحسن والمزاح المباح الذى لا يخرج عن الحق ، وحُسْن العِشرة للأهل والأصحاب .

وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به فى المشهد والمغيب ، احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه فى وجهه .

وإذا احتج به المتورعون على الورع المحمود ، احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويُسرها وسهولتها .

وإذا احتج به مَن صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه ، احتج به مَن راعى

إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه ، فإنه ـ صلى الله عليه وسلم - بُعِث لصلاح الدنيا والدين .

وإذا احتج به مَن لم يعلق قلبه بالأسباب ولا ركن إليها ، احتج به مَن قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقها .

وإذا احتج به مَن جاع وصبر على الجوع ، احتج به مَن شبع وشكر ربه على الشبع .

وإذا احتج به مَن أخذ بالعفو والصفح والاحتمال ، احتج به مَن انتقم فى مواضع الانتقام .

وإذا احتج به مَن أعطى لله ووالى لله ، احتج به مَن منع لله وعادى لله .

وإذا احتج به مَن لم يدخر شيئاً لغد ، احتج به مَن يدخر لأهله قوت سنة .

وإذا احتج به مَن يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل ، احتج به مَن يأكل اللذيذ الطيب كالشوى والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه .

وإذا احتج به مَن سرد الصوم ، احتج به مَن سرد الفطر ، فكان يصوم حتى يُقال لا يفطر ، ويفطر حتى يُقال لا يصوم .

وإذا احتج به مَن رغب عن الطيبات والمشتهيات ، احتج به مَن أحب أطيب ما فى الدنيا ، وهو النساء والطيب .

وإذا احتج به مَن ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه ، احتج به مَن أدَّبهن وآلمهن وطلَّق وهجر وخيَّرهن .

وإذا احتج به مَن ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه ، احتج به مَن باشرها بنفسه فآجر واستأجر ، وباع واشترى ، واستسلف وأدان ورهن .

وإذا احتج به مَن يجتنب النساء بالكلية فى الحيض والصيام ، احتج به مَن يباشر امرأته وهى حائض بغير الوطء ، ومَن يُقَبِّل امرأته وهو صائم .

وإذا احتج به مَن رحم أهل المعاصى بالقدر ، احتج به مَن أقام عليهم حدود الله فقطع السارق ورجم الزانى وجلد الشارب .

وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر ، احتج به أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة ، فإنه حبس فى تهمة وعاقب فى تهمة » .

إلى أن قال : « والمقصود بهذا الفصل : أنه ليس الفقراء والصابرون ، بأحق به - صلى الله عليه وسلم - من الأغنياء الشاكرين ، وأحق الناس به أعلمهم بسُنَّته ، وأتبعهم لها » [1] .

* * *

(١) من كتاب « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » لابن القيم ، مطبعة دار البيان بالقاهرة ص ٢٦٦ - ٢٦٨